العرب
الجمعة 2019/12/13
السنة 42 العدد 11557

صحافية تكتب مآلات حبها الأول بطلاء الأظافر

«ليالي تماريت» معاناة امرأة مغربية خسرت أنوثتها

يعتبر تيار الوعي تمشيا هاما إذا ما أراد الكاتب الكشف عن فكرة ما أو معالجتها من جوانب مختلفة، مستفيدا من تقنيات تجريبية متنوعة، مثل الإبلاغ الذاتي والمونولوج وغيرها، لتحقيق الوصول السهل إلى الأفكار التي يريد طرحها. وهذا النمط من الكتابة هو ما اختارته الكاتبة المغربية أمينة الصيباري في روايتها الأخيرة.

فيصل عبدالحسن
كاتب عراقي

في رواية "ليالي تماريت" لأمينة الصيباري تأخذ اعترافات غادة العفوية، ومنذ الصفحات الأولى اهتمام القارئ، حيث صحافية شابة جميلة تكتب لقارئها عن نفسها بمداد القلب، ما يعبر عن معاناة عزلتها، كأنثى مصابة في كبريائها، معلنة أن من تسبب في ما حصل لها هو الرجل الوحيد الذي أحبته.

> بطلة الرواية تعيش بعد طلاقها بين الرباط والدار البيضاء تحاور الفنانين والكتاب، قوية في الظاهر ضعيفة في عمقها

الرواية، نسجت ملابسات حكاية غادة وعالمها الحزين المتشابك من خلال ذكرياتها حين كانت طالبة جامعية وأحبت أستاذ الجماليات والبلاغة بكلية الآداب "فريد العطار". ووقع لها بعد ذلك ما يقع للكثيرات من علاقات الحب، أعقبها زواج قصير وطلاق، خلف لها وللكثيرات عقدا نفسية، لا يتمكنّ من البرء منها.

عزلتها تصور لها، قناعات ترضيها، وتفسر بها ما وقع لها، فتعمّمه على الجميع لترتاح من أحزانها. قناعتها مفادها أن المرأة لا تحتاج إلى عقل لتفكر به، بل تحتاج إلى أن تكون جميلة ومدللة فقط، لتكمل ديكور المنزل الجميل، كتحفة فنية يتباهى الزوج بها.

كتابة هذا اللون السردي، الذي يستبطن الشخصية نفسيا، ويكتب بقلم كاتبة ستكون له تأثيرات عميقة على وجدان القارئ، لأن هذه الكتابة في وجه من وجوهها بوح عن أحزان عالم أنثوي سري لا يعرف تفاصيله الكثيرون.

الكتابة لعنة

استخدمت الكاتبة في رواياتها، الصادرة مؤخرا بالدار البيضاء، الضمير المتصل "أنا" في السرد، مما مكنها من نقل أحاسيس ومشاعر تلك الأنثى. فجسدتها عبر منلوجات قصيرة بليغة. نقلت بلاغتها إلى عزلتها في شقتها وأحزانها من خلال علاقتها بالوقت و"بامحمد" ركين سيارات الحي، الذي يحرص على تلبية طلباتها من الحوانيت المجاورة، وصديقتها الصحافية منى وزوجها إبراهيم. وهما يعملان معها في مجلة "المقام"، من خلال تمثل تيار الوعي بين الطرفين غادة والقارئ.

مثل المتن ما يحيط بغادة من ظروف، وأحوال المكان والأشخاص المحيطين بها عبر رسائل قصيرة. ساهمت في رسم سايكولوجية البطلة المهزومة. كقولها "الكتابة لعنة" و"أكتب خربشاتي بطلاء الأظافر، كطفلة تحاكي أمها في الزينة" ساخرة من الكتابة، معتبرة إياها خربشات طفلة.

وفي مكان آخر تقول "أفظع شيء يمكن أن يحدث للمرء أن تنبت للإنسان بواسير دماغية تمنعه من التفكير". التفكير مهم، ولكن جعله مؤثرا بالآخر من خلال الكتابة، خربشة لا معنى لها، وهذا يرسم صورة لـ"غادة" القوية في مظهرها، والضعيفة في داخلها حدّ الانهيار والبكاء، لأقل حدث عابر يمر بها أو كلمة خادشة تسمعها حتى من أقرب الناس إليها. فهي تقرر ترك بيت الأسرة بعد طلاقها وعيشها لفترة مع أمها وأختها بعد أن سمعت وشوشة أختها "لطيفة" لأمهما، وكانت أختها تخطط للزواج من خطيبها والعيش في بيت الأسرة، ووجود غادة عقبة لتحقيق هدفها. فلم يكن أمام غادة غير قرار العزلة عن الأهل والأصحاب والانزواء في شقة اكترتها، لتقييم ما مر بها، وما كابدته من تجربة الزواج الفاشلة.

تعيش غادة بعد طلاقها بين الرباط والدار البيضاء تحاور الفنانين والكتاب، وتكتب وتنشر مختلف القضايا الثقافية في المجلة. يجذب المهندس عماد وضعها كمطلقة، ومظهرها الجذاب، الذي ينمُّ عن قوة ظاهريّة، وكذلك اختلافها المهني عن كثير من زملائها في مهنة الصحافة، واتصافها بالأمانة.

حاول عماد الذي أغراه وضعها كمطلقة أن يقنعها بموافاته إلى دعوة عشاء، وحين فشل بذل مجددا عدة محاولات، لكنها كانت بلا فائدة، فتقدم لخطبتها، لكنها رفضت كل عروضه وإغراءاته بالاقتران بها. فهي في عمقها كما عبرت له لا تزال متزوّجة بفريد العطار، مخلصة لحبيبها الأول بالرغم من طلاقها منه منذ وقت طويل.

غادة رسمتْ ملامحها من خلال تداعياتها في ليلها الطويل الذي يمر بها من دون أن يغمض لها جفن. فهي تعاني من أرق متواصل، مما عانته من صدمتها بحقيقة زوجها السابق، وانعدام إنسانيته وكذب دعواه بحبها في قصائد ديوانه الشعري وقصائده المنشورة في الصحف والمجلات.

حادث سير

تشعر غادة من خلال علاقتها بالرجال في العمل، وكل مكان تحلُّ فيه بقوة جذب "المطلقة" للرجال المتزوجين، لكنها لا تعرف السر في ذلك. وحالما يعرف علي الريسوني زميلها السابق في كلية الآداب، أنها مطلقة وكان متزوجا، حتى يهرع إليها محاولا استمالتها، للزواج منها، زاعما أنه كان يحبها من طرف واحد أيام الجامعة. وبرر لها عدم بوحه لها بحبه حين كانا طالبين لمعرفته بعلاقة الحب، التي كانت تربطها بأستاذها فريد العطار. تكاد غادة أن تركن لعرضه بالزواج منها، لولا مهاتفة من صديقتها منى في آخر الليل تخبرها فيها أن طليقها يقبع حاليا في ردهة العمليات الخطرة بمستشفى السلام، بسبب حادثة سير.

الحادثة التي وقعت لطليقها تفجر فيها ذكريات مريرة عن الصدمة، التي تعرضت لها حين كانت زوجته، فمستشفى السلام يذكرها بطلب العطار منها أن تجهض في ذات المستشفى بعد أن علم بحملها منه، لأنه لا يحتمل وجود طفل يزيد العالم بؤسا. وتتساءل بألم مرير لماذا في هذا المستشفى أيضا، وليس في غيره أذهب لأراك فيه، وربما لآخر مرة؟

تتناول الكاتبة تلك المأساة التي مرت بحياة غادة الزوجية من خلال تقنية تيار الوعي، فإذا هي لا تزال زوجة للعطار، فرحة بحبيبها الذي تزوجته، وبالحياة معه، محاولة أن تجعله يكتب قصائده الثورية، التي تمجد الوطن، وتحمل في لغتها أمنيات طيبة بالسعادة والرخاء للجميع. وما أن بدت عليها علامات الحمل وأعلمته بذلك، حتى تحول ذلك الشاعر المفعم بالمشاعرالجياشة إلى شخص آخر، لا رحمة في قلبه، وطلب منها أن تجهض، ما دام الحمل لم يبلغ العمر المحدد الذي يمنع الشرع إجهاضه.

حاولت غادة مرارا ثنيه عن طلبه، لكنه كان مصرا. واتفقا بعد وقت قصير مع طبيبة بالمستشفى الخاص، الذي يرقد فيه حاليا في حالة خطر شديد، على إجراء عملية إجهاض طفلهما. الإجهاض الذي تصفه الكاتبة بدقة، وما واجهته من آلام، لحرص الطبيبة على إجراء العملية من دون تخدير، لئلا يقع لها ما لا يحمد عقباه، ويعرضها للمساءلة القانونية، وكذلك لتوفير أجرة طبيب التخدير، ومادة التخدير، فهي تعتبر هذه المصاريف بلا مبرر.

شعرت غادة بإهانة بالغة لأنوثتها، مما حدث لها في تلك الغرفة في قبو سرداب المستشفى، المستعمل لحفظ المعدات التالفة. وأورثتها تلك العملية صدمة لم تبرأ منها حتى بعد إجراء العملية. وبعد خروجها من المستشفى رفضت العودة إلى شقة زوجها، وانتقلت إلى بيت أسرتها، وفشلت محاولاته لمصالحتها بالرغم من محاولاته المتكررة. وكان ردها الوحيد أنها تطلب الطلاق منه، الذي حصلت عليه أخيرا.

وتعيدنا غادة إلى الحاضر عندما تودع فريد العطار الوداع الأخير في مستشفى السلام الذي كان شاهدا على قتل أنوثتها، وطفلها معا بطلب من حبيبها المسجى أمامها الآن جثة هامدة لا حراك فيها.

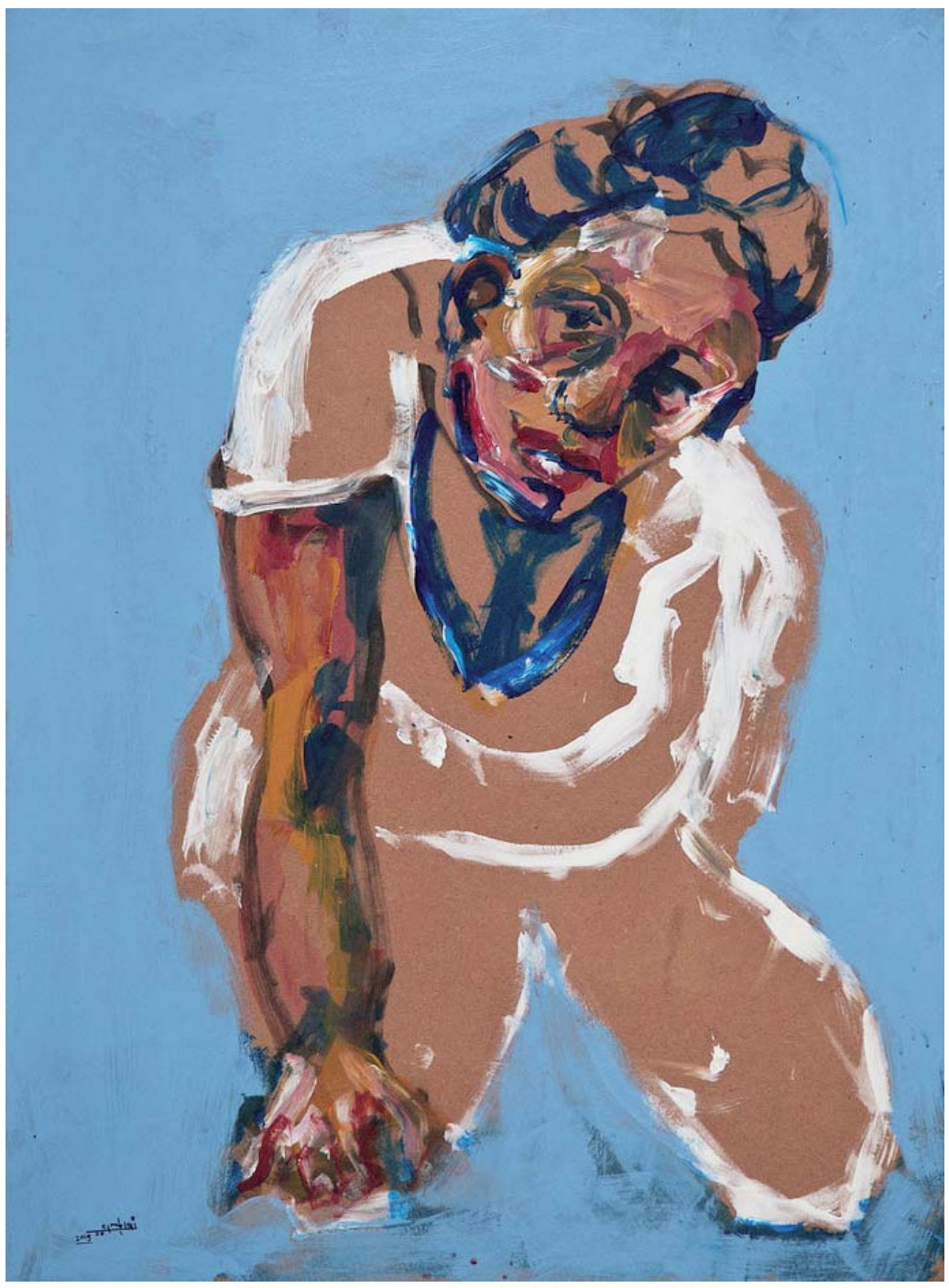

امرأة تعاني مع وحدتها (لوحة للفنانة نور بهجت)

كتاب التيه لحسونة المصباحي.. إشراقات الرحلة المعرفية

تونس - يبدو أدب الرحلة من أهم الآداب التي توفر للقارئ متعة ومعرفة بالمدن والحضارات من مختلف الأصقاع. وقد برزت في الأدب العربي القديم أسماء عديدة كتبت في هذا الجنس على غرار ابن بطوطة والمسعودي صاحب كتاب مروج الذهب ورحلة السيرافي بحرا إلى المحيط الهندي والمقدسي صاحب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، والإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وغيرها كثير.

ولئن اعتبر القرن السادس هجري (الثاني عشر ميلادي) من أكثر القرون إنتاجا لأدب الرحلة، فلقد ذهب النقاد إلى أن أغلب تلك الكتب كانت تنتمي إلى الدراسات التاريخية والجغرافية التوثيقية أكثر من انتمائها إلى الأدب.

ووصولا إلى القرن التاسع عشر، أصبح أدب الرحلات شكلا فنيا داخلا في الأدب كتب فيه رفاعة رافع الطهطاوي، حسن فوزي، توفيق الحكيم وغيرهم..

تراجع هذا الجنس عما كان عليه في العصور السابقة حتى القرن الحادي والعشرين رغم توفر وسائل جديدة ومريحة للسفر والترحال حيث أصبح السفر جزءا من الحياة اليومية.

من بين كتب أدب الرحلة الحديثة "كتاب التيه" الذي صدر هذه السنة عن دار نقوش عربية للكاتب والروائي التونسي حسونة المصباحي. كتاب من 247 صفحة يسرد رحلات إلى مدن من الشرق والغرب، من "الهروب إلى الأندلس" إلى "سرايفو في نقاهة ما بعد الحرب".

كتاب التيه لا يتوقف عند الرحلة في المكان بل يسافر في الزمان. إنّه نوع من الاشتباك الثقافي والمعرفي بين أمكنة يرتادها الكاتب بحثا عن معنى واضح لهوية الإنسان المعاصر كما جاء في مقدمة الكتاب.

تأتي نصوص كتاب التيه في شكل زيارات لمدن مختلفة بحثا عن المتعة والمعرفة واكتشاف ثقافات الآخر. إذ يستهل المصباحي النص الأول "الهروب إلى الأندلس" في رحلة ممطرة عبر القطار من باريس وصولا إلى مدريد. ومنها إلى مدن إسبانية أخرى.

الأندلس، فاس، الدار البيضاء، أصيلة، طنجة، باريس، القيروان، زيوريخ، ميونيخ، ستوكهولم، فينا، برلين، سردينيا.. وصولا إلى سرايفو.

مدن ورحلات ونصوص تدور في فلك الزمان والمكان (الزمكان) ملتصقة بهموم الإنسان وهواجسه، بانتصاراته وخسائره. بالجمال الذي فيه والقبح الذي يسكنه. هي رحلات المصباحي الإنسان والكاتب، الحالم والمخذول. لكن وسط كل ذلك ثمة رغبة في سبر أغوار الإنسان أينما كان.

جميع نصوص هذا الكتاب تقريبا هي رحلات بحث عن كتّاب التيه، فيها يروي لنا الكاتب زيارته لمدن كتاب وشعراء وروائيين عالميين مثلما نجده في نص "صباح هادئ في فوانتا فاكيروس" وهي زيارة إلى قرية لوركا والتي يستهلها حسونة المصباحي برغبته الدائمة في زيارة مدينة أو قرية ولد فيها مبدع كبير "أعترف أن لي رغبة دائمة، ومتعة خاصة في أن أزور مدينة أو قرية ولد فيها مبدع كبير. ويستهويني أن أبحث عن آثاره في مكانه وعن كل ما شكّل عوالمه قبل تفتح موهبته".

وهكذا كانت زيارته إلى قبر جين جينه في باريس وقبر جيمس جويس في زيوريخ.

أما التوهان في فاس فقد كان لاقتفاء أثر ابن خلدون بين الأسواق القديمة والشوارع الملتوية، ومنها يأخذنا الكاتب إلى لقاءاته بالكتاب المغاربة في الدار البيضاء وأصيلة وطنجة مثلما في نص "ليلة مع محمد شكري في طنجة"، ويقول فيه "ليس من الصعب العثور على محمد شكري في طنجة، أغلب ماسحي الأحذية وباعة الصحف والمجلات ونادلي المقاهي والمطاعم يعرفونه".

في هذا النص يستعرض لنا الكاتب سيرة محمد شكري على لسانه وبداياته الأولى مع الكتابة ولقائه بجين جينيه.

ومن أجمل النصوص في هذا الكتاب هو النص الأخير "سرايفو في نقاهة ما بعد الحرب"، الذي يتضمن رحلة المصباحي إلى سرايفو المدينة التي كانت مسرحا لأحداث كبرى.

يقول الكاتب في هذا النص "مدينة دفعت الثمن غاليا مثل بيروت وبرلين وغدانسك، لأنها جسدت التسامح بين الأديان، والجنسيات واللغات وعلى مدى سنوات طويلة قاومت جنون القتلة وحقدهم متحدية الموت والجوع والبرد ولا مبالاة الرأي العام العالمي".

وفي هذه الرحلة التقى بالشاعر عزت سرايلتش ودار بينهما حوار عميق حول الفن والحرب، وموقفه الغاضب من أوروبا التي تفاخر بأنها موطن الحرية والأنوار وكرامة الإنسان في حين أنها بقيت لسنوات طويلة وهي مكتوفة الأيدي أمام المجازر الفظيعة التي كانت ترتكب يوميا.

> الكتاب نوع من الاشتباك الثقافي والمعرفي بين أمكنة يرتادها الكاتب بحثا عن معنى واضح لهوية الإنسان المعاصر

هذا الكتاب ليس فقط توثيقا لرحلات المصباحي إلى مدن من الشرق والغرب اقتفاء لأثر كتاب عظماء وحضارات من هنا وهناك بل هو شهادات أدبية على أكثر من قرن، وحفر في ذاكرة المدن، هروب من القيروان الموطن الأول للكاتب ووصولا إلى عواصم العالم حيث الفن والموت يتعانقان ويتحاربان.

وداخل هذه النصوص تشابك واضح بين السيرة الذاتية وبين الإخبار والسرد والتوثيق لمراحل مهمة من حياة الإنسان المعاصر. إنه إشراقة الرحلة المعرفية يقودنا فيها المصباحي إلى كنوز وأسرار عظيمة.

كاتب في جولة بين المدن